

أزمة فكر ومنهاج لا أزمة صدق وإخلاص

إن من تأمل ما أصاب طوائف المسلمين عبر تاريخ هذه الأمة من خلل في الفكر ، أو انحراف في السلوك ، أو تخلف في قيم الحضارة ، يجد أن أكثره من عند أنفسهم ، بسبب فساد المناهج والمشارب ، واستشراء العجز والكسل ، والتقاعس عن تحقيق أسباب الاستقامة والرقى ، وهي سنة الله في خلقه ، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج .

فهذه الأمة أتيت من داخلها ، بانحراف طوائف القاسطين فيها عن نهج سنن أهل العلم وحماة الفكر ، والاستمسك بسنن النصر والعزة . وهي سنن لا ترحم أحدا ، فإن نقطة الانطلاق تحدد مرام الوصول ، وإذا اختل منهاج آل الناس إلى عوج وتيه وضلال ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَنَبَشِئُ مِكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْشِئُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المالك: ٢٢] .

فقد انحرف طوائف من هذه الأمة عن الجادة ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، وصار أخلافهم من المقلدين يجترون الغث من هذا التراث في عماية وضلالة على غير منهاج وطريق .

فألت الأهواء الحادثة عندهم مسلمات ، والثوابت بإزاء أهوائهم ظنونا متغيرات ، والشرائع جامدة معطلة ، والفروع والكليات مضیعة . أكثرهم فرطوا في الأصول ، واقتتلوا على الفروع ، وعطلوا نعمة العقل والنظر ، حتى صار الجهل علما ، والهوى سياسة ، والصلف والجرأة على الدين حرية ، والكفر وجهة نظر ، والسفه خلافا في الرأي ينبغي أن يُعتبر !!

ثم تراهم بعد ذلك يعودون باللائمة على غيرهم ، ويردون البلاء إلى مكر اليهود والنصارى ، وقد بلغوا من أنفسهم ما لم يبلغه أعداؤهم منهم .

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ أَصْبَتِكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

وقد تضافرت الأدلة على أن أزمة المسلمين اليوم أزمة فقه ومنهاج ، قبل أن تكون أزمة صدق وإخلاص ، فإن من ضل من طوائف أهل البدع والأهواء لم يعدم أكثرهم صدقا ولا إخلاصا ، ولم يفتهم التعلق بحب الخير لهذه الأمة ، لكن فاتهم طريق العلم ، حيث ضرب بينهم وبين سنن أهل العلم بأسداد ، فكانوا أبعد عن السداد .

والمسلم مرآة عقله ، وحاله انعكاس لمنهجه وفكره ، فالعقل الإسلامي من نفسه أقي ، وعلى نفسها جنت براقش ، كما قال الشاعر :

وداؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
فأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمّر^(١)

فمن الواجب على حملة العلم ودارسي التراث الإسلامي إحكام قواعد المعرفة ومنهج نخل التراث بغثة وسمينه ، وخيره وعفينه ، باستلهاام المنهج الإسلامي في نقد النظريات والأفكار ، الذي ينبنى على أصول العقيدة ، وقواعد النقد عند المحدثين ، وأصول النظر والاستدلال عند الأصوليين والفقهاء ، فهي مناط قواعد المعرفة الإسلامية ، وبها يتم تأصيل الفكر الإسلامي الصحيح .

ومن سداد المنهاج في نقد التراث وتأصيل المعرفة مراجعة فهم السلف ومن سار على نهجهم من العلماء في غربة العلوم وأفكار الطوائف والرجال ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأغرزها علما ، وأقلها حشوا وتكلفا ، وقد كانوا أقرب الناس إلى

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي : ٢١٢ / ١ .

معرفة مكامن القوة والخلل في فكر الأمة ، وعلموا من ذلك فوق ما علمنا ، فما كان منه صالحا موافقا للأصول أخذناه ، وما كان من ذلك شرا وبلاء مناقضا لها تركناه .

وليس المنهاج مجموعة نصوص يقرؤها المرء ويطير بها كل مطار دون فقه أو دراية ، بل «المنهاج قواعد علمية مستفادة من ثمرات العلم بالنصوص ، وتفاعل العقل مع الوحي ، وامتزاج النظر بالأثر» .

وهذه القواعد دل عليها استقراء صنيع العلماء في النظر والاجتهاد في تأصيل المعارف والعلوم ، واستثمار النظريات والأفكار ، والكشف عن سنن الله الشرعية والكونية . إذ لا بصر لهذه العقول إلا بنور القرآن والسنة ، ومزج ذلك بالنظر في سنن الله الكونية والشرعية في الآفاق والأنفس والمجتمعات .
